الأدب الحديث

المحاضرةالخامسة

- النص الإبداعي الرومانسي -

1 – الحركة الرومانسية في الآداب الغربية:

لقد وجدت الرومانسية في المجتمع الغربي تربة صالحة لتطوها و بروزها خلال القرنين الماضيين، و قد أصيب هذا المجتمع على المستوى الاجتماعي و الفكري بخيبة أمال كبيرة من نتائج الثورات البرجوازية التي لم تحمل معها سوى استعبادا آخر للإنسان في شكل الهيمنة الرأسمالية فتحولت كل القيم الى سوق من المنافسة و الجشع ، و لم يكن للأديب أو الفنان أن يتقبل هذا الوضع المهين و أن يعيش في مجتمع مندحر ، لذلك نمت فكرة استمدت جذورها من فلسفة(هيغل و كانط) و من الروحانية المسيحية القائلة بفردية الفنان و غربته في الوجود، وارتفعت الدعوة الى هجر المدينة و اللجوء الى البراري .

و من أبرز رواد الرومانسية في الآداب الغربية نجد " فيكتور هوجو" ، و " لامارتين "، و " الفريد دي موسيه" في الدب الفرنسي ، و" شيكسبي"، و "بايرون" ، و" شيلي" ، و " كولريدج" في الأدب الانجليزي ، لقد كانت أشعارهم زاخرة بالعاطفة الجياشة و الإحساس العميق و الفردية المتطرفة و الغموض الميتافيزيقي ، و كان لديهم إيمان عميق بأن الشاعر لا يكتب إلا عن طريق الوحي و هذا الوحي ياتي عن طريق الحلم.

و حسب الدكتور مندور ،فإن هذا المذهب الذي اتخذ من الأدب وسيلة للتعبير عن الأحاسيس الشخصية قد أسرف في اتجاهه هذا ...حتى أصبح في كثير من الأحيان صرخات عاطفية أو أنات شعورية ذلك أنه لم يعد يحفل بغير الترجمة عن العاطفة الشخصية.

و قد تميز هذا التيار بخصائص تتعلق بالمضمون و بالناحية الفنية.

ففيما يتعلق بالمضمون، فإن مجمل خصائص المدرسة الرومانسية الغربية تتمثل فيما يلي:

1 – طلب الحرية و الإغراق في الغنائية.

2 – التعبيرلا عن تأزم الفكر و الإرادة و القلق و الكآبة و التشاؤم و التمزق.

3 – تقديم الخيال على العقل و الهرب من الواقع و الالتجاء الى الحلم و طلب الانعتاق و الرحيل عبر المكان بريادة البلدان البعيدة أو عبر الزمانن بالارتداد الى القرون الغابرة.

4 – الميل الى الغوامض و الخوارق والأساطير ورؤية الطبيعة ملاذا و اتخاذها رفيقا أنيسا و محاورا في تحليل الانفعالات النفسية.

5 – بروز الفردية و تضخمها ،و انتفاضتها على الموضوعات الكلاسيكية و أصولها و عبادة الذات و المغالاة في عرض شؤو نها.

6 – الدفاع عن الضعف المتمثل في النبتة و الحيوان و الإنسان المضطهد و الشعب المستعمر و التوق الى عالم فاضل تسوده مباديء العدل و المساواة و المحبة .

فالرومانسي الغربي إجمالا إنسان غامض ، لا يثق بالنهج العقلاني ، يفضل الشعر على الفلسفة و العاطفة على المنطق و المثالى على الواقعي ، أما على صعيد الشكل الفني فإن الرومانسشية تنادي بتحطيم القيود و القواعد و التقاليد و تركز على التلقائية و الغنائية و الفطرة و السليقة و الموهبة و الخلق ، و اعتبر الرومانسي الخيال مولدا للصور، و الصور وسائل تجسم الأحاسيس و الأفكار ، فغدت القصيدة غنائية ذات وحدة عضوية تنمو داخلها في اتساق تام حتى نهايتها.

و يحترم الرومانسيون قواعد الكتابة و إن كان المضمون و الأفكار عندهم أهم من الأسلوب، لكنهم يرفضون اللغة المتكلفة و يستخدمون أنغاما و ألوانا جديدة ضمن إطار لغوي دقيق ينسجم مع أسرار لغتهم فكان " فيكتور هوجو " و "قوتيه" و " بايرون" و" بوشكين" و أمثالهم على علم عميق و اطلاع واسع على فصاحة لغاتهم يجيدونها و يعرفون أصول قواعدها.

و إذا كانت هذه هي حال الرومانسية في الغرب فكيف تجلت سماتها في الأدب العربي الحديث ؟ و ما هي أبرز العوامل و الظروف التي ساعدت على ظهورها في الشعر العربي ؟ .

2 – السمات العامة للرومانسية العربية:

يبدو الشعر الرومانسي الإبداعي العربي متأثرا الى حد بعيد بمثيله الغربي ، فمن حيث محتواه نجد أن النزعة الذاتية مسيطره على الأعمال الشعرية التي صنعها الابداعيون العرب، و أنهم يحتفون بالنفس الانسانية كل الاحتفاء و يرفعونها الى مرتبة التقديس كما يمجدون الألم الانساني و الذاتي ، و يلجؤون الى الطبيعة في غاباتها البكر و قد الهمتهم هذه الطبعة صورا خيالية منحت أشعارهم الحيوية و الجدة و شحنوا صورهم المبتكرة بعواطف رقيقة نبيلة إلا أنها جاءت متباينة الوقع ، فقد نلمح فيها الفرح الغامر عند بعضهم و قد نحس بالسوداوية و التشاؤم عند بعضهم الآخر و قادهم اهتمامهم بالوجدان الانساني في مرحلة الاستعمار الغربي الى الدفاع عن الانسان العربي في ساعات المحن و العسر و الغضب لما يلاقيه من ظلم أو اضطهاد.

و من الناحية الفنية لإإننا نجد الشعراء العرب قد جددوا اساليب التعبير و نوعوها ، و أبدعوا الصور الفنية الجديدة ، و سخروا اللغة الشعرية لتصوير الشحنات العاطفية المتدفقة في نفوسهم ،و اتى اللفظ موحيا بالمعنى لما فيه من رقة و عذوبة و حرارة غنائية و وضوح ، وإذا كانوا قد تجنبوا التراكيب القديمة الجاهزة و الصور البلاغية البديعية و البيانية المتداولة ن فما ذلك لضعف في قاموسهم اللغوي ، فقد كان معظمهم يجيد العربية و يعرف اسرارها كبشارة الخوري و خليل مطران ، وأبي شبكة ، و على محمود طه ، و غيرهم....فقد جددوا جميعا لغة الشعر و أوزانه و صوره ، و يمكن تلخيص صور التجديد و الابداع عندهم فيما يلي:

1– الصورة الشعرية:

أطلق الرومانسيون العنان لخيالاتهم و تجاوزوا الصور القديمة و حلقوا بخيالاتهم في آفاق رحبة حرة ، فأبدعوا صورا أدبية نضيرة مبتكرة و شحنوها بعواطف إنسانية حارة تفيض حماسة و رقة. الصورة في الشعر العربي الشعر نصٌّ إبداعيّ، فالشاعر يعبّر فيه عن رؤيته بطريقة غير تقليديّة، ويستخدم أساليب تعبيرية متعددة، ومن هذه الأساليب:

التشبيه أو الاستعارة أو المجاز وغيرها، وكان الشاعر القديم يستخدم هذه الأساليب في شعره، ويرسم الصور الفنية التي تعطي للشعر الصفة الإبداعية التي يتميز بها عن غيره من النصوص، ويؤثر في المتلقي، ولم يكن الاهتمام في الصورة الشعرية محصورًا بالشعر في العصور السابقة، بل إن الشاعر الحديث اهتمّ بها اهتمامًا كبيرًا، وحاول أن يجدّد فيها بما يتواءم مع التجديد في الشعر الحديث من حيث الشكل والمضمون، ولذلك فإن الشعراء المحدَثين استخدموا الصور بأسلوب أكثر حداثة، واجتهدوا في تجنّب الصور المستهلكة، وحاولوا جَعْل هذه الصور أكثر تمثيلًا للواقع والمجتمع الذي يعيشون فيه.

مفهوم الصورة الشعرية في الشعر الحديث الصورة وسيلة للتعبير عن الشعور أو الفكرة في أبسط معانيها، ولا يمكن الفصل بين الشعور والفكرة في تشكيل الصورة الشعرية، ولكن هذه الصورة لا تتشكّل بصورة مباشرة أو حرفيّة، بل إن الشاعر فيها لا يرتبط بنسق الأشياء كما هي في الحياة، بل يلجأ إلى اللاوعي يستمدّ منها الرموز المتباعدة في الزمان والمكان؛ ليعبّر عن فكرة أو شعور أو رؤية أو تجربة مرَّ بها في قصيدته، فالقصيدة تتشكل من مجموعة من الصور التي قد لا ترتبط ببعضها في الواقع، ولكن الشاعر بخياله الابتكاري يستطيع الربط بينها، لإقناع المتلقي بأسلوب فني إبداعي بلاغي يؤثر في نفسه، ويثير عاطفته وفكره، ويحفزه على الفَهم والتفسير للنصّ الشعري. ويؤدّي الخيال الإبتكاري دورًا مهمًّا في تشكيل الصور الشعرية، بهدف التعبير عن معنى جديد، وتُسهم اللغة أيضًا في تشكيل الصورة الشعريّة، فلا يستخدم الشاعر المعنى المعجميّ المباشر للفظة، إنّما يعيد تشكيلها بصورة خاصّة، أيْ استخدام التعبير الأدبي الذي ينطوي على الانزياح الأسلوبي الذي المتلقي إلى التأويل والتفسير، وهذا ما يجعل النص الشعري يمتلك خصوصية، فقد ينظر إليه كل قارئ من زاويته الخاصة، ليكون النص الشعري ينطوي على معانٍ وتأويلات متعدّدة.

علاقة الصورة الشعرية بالخيال الأدبي إن الشعر مزج بين الحقيقة والخيال، أو هو استخدام الخيال لفَهم الحقيقة وفهم الكون والإنسان والحياة، وطرح الأسئلة المتجذّرة في نفس الإنسان، لتشكيل موقف ما تجاه أمر ما، فالخيال أصل الصورة الشعريّة، ولا تتشكل الصورة إلا به، فهو الخيط الذي يجمع عناصر الصورة، ويشكلها في نص شعري إبداعي، يخالف بذلك النصوص المألوفة العادية، فالشاعر يبحث عن اللامألوف؛ ليفهم المألوف أو ليسعى إلى فهمه، وهذا ما يجعل صاحب النص شاعرًا يستحقّ هذه التسمية؛ لما يضفيه على شعره من شعوره، وتمتزج عاطفته بخياله، فيخلق ويبدع نصًّا يحقق له التفرد والتميز عن غيره من الناس، فما يجعل هذا الإنسان مبدعًا أو شاعرًا هو اختلاف نظرته للأمور، وإعماله لعقلِه ومخيّلته التي ترى الأشياء المألوفة، فتحولها إلى أشياء غير مألوفة، فتُحدِث الإدهاش للقارئ وتُسحره، بل تجعله يشارك في تأويل النص الشعري الذي يصبح بوجود الصورة الشعرية فيه مفتوحَ الآفاق للقول فيه ولذلك فالسؤال الذي يُطرح على النصّ الشعريّ: كيف يقول الشاعر ما يقول، لا ماذا يقول، فالموضوعات مطروحة في الطريق، وكذلك الألفاظ، لكن التعبير عن المعنى بالصور هو الذي يجعل الموضوع متميزًا، فقد يجمع الشاعر بين عناصر متنافرة لا علاقة حقيقية بينها في الواقع، ولكن ينسجها بخياله فتصبح معبرة دون أن تبوح، وتبتعد بذلك عن المباشرة والتقريريّة، وهذا ما يجعل الصورة الشعرية جوهر العمل الشعري، فهو تشكيل بالصور مستعينًا بالطاقة اللغوية التي تمنح الشاعر قدرته على التعبير، وتحقيق الانسجام في الصورة الشعرية مما يضفي بعدًا جماليًّا على النص الشعري،

وطاقة إيحائيّة تعبر عن نفسية الشاعر، وتجربته الشخصية التي تتعدى الذاتية، وتكتسب بعدًا إنسانيًّا بهذه الصور الشعرية إذا استخدم الشاعر الرمز والأسطورة ببراعة لكي يربط الأزمان ببعضها في الرمز، ويجرد نصه من البعد الزماني والمكاني المؤطّر بوجود الأسطورة. وتعدّ الصورة الشعريّة وسيلة للتجديد في النص الشعريّ؛ لأنها تجعل النص متجددًا نابضًا بالحركة والحياة، فضلًا عن أنّ الصورة الشعرية تجعل النص الشعري يتجاوز حدود زمانه ومكانه، فتكون سببًا من أسباب خلودِه عن طريق إضفاء بعد إنساني يتوزّع في أجزاء النص عامةً، لذلك يشعر القارئ أنّ الشاعر يخاطبه في القصيدة.

2 – اللغة الشعرية :

تطلب التجديد تطويرا للغة الشعرية فاستعمل الشعراء اللغة المأنوسة المألوفة القريبة من حياة الناس و شحنوها بطاقات عاطفية و خيالية رقيقة مصورة و تناغمت الألفاظ مع بعضها فولدت علاقات إيحائية جديدة ، و لم يشذوا في هذا كله عن الاشتقاقات اللغوية المعجمية أو القواعد النحوية و الصرفية ، وإنما وفروا للتراكيب الشعرية المتانة و القوة في انسجام و رقة.

3 – الموسيقى الشعرية : وفّر الأدباء لأشعارهم غنائة عذبة إذ اهتموا بالموسي الداخلية التي تصدر من رقة الصياغة و انسجام اللفظ كما اهتموا بالموسيقى الخارجية التي تأتي من الأوزان العروضية حين تنسجم مع المضمون و ينساب فيها النغم بطلاقة و رقة.

4 – الرؤية الشعرية :

أعطت الرؤية الرومانسية الشعر روحا سلبية حزينة أحيانا تجلت في التشاؤم و الياس و الكآبة، و لكنها أعطته أيضا في أحايين أخرى روحا إيجابية تجلت في الفرح تارة و بالتحدي و التمرد و التطلع الى الحرية و الثورة على المستعمر تارة اخرى ، وأعلت منزلة النفس الانسانية و دعت الى الحق و الخير و الجمال ، و كانت روح الأدب القومي رومانسية ثورية فيها حس عفوي بإمكان الترحر و التخلف و الظلم من خلال العمل و النضال المخلص النبيل.

نشأة المدرسة الرومانسية و عوامل ظهورها:

ليست هناك سنة محددة تماما ولدت فيها المدرسة الرومانسية في الشعر العربي الحديث كما أنها لم تظهر بشكل مفاجيء ، و ما من شك أن ما عاناه الإنسان العربي من إخفاقات في كثير من قضاياه المصيرية ولد عند بعض الأدباء العزلة و الضياع و الشعور بالغربة و التفرد في مجتمع لم يستطع الفنان أن يندمج فيه .

و يشير الدكتور جبور عبد النورالى أن الإشعاعات الأولى لهذا التيار في أدبنا العربي بدأت تظهر ملامحها في الدواوين الستة للشاعر اللبناني "خليل الخوري" الصادرة كلها قبل عام 1880 الذي كان عاى اتصال تراسلي مع قمة من قمم الرومانسية الفرنسية و هو لامارتين (1790م- 1869 م) ، فهو إذا من الأوائل الذين فتحوا باب الاطلاع على الآداب الأوربية و بخاصة الفرنسية و أظهر تقاربا بين المدرسة الرومانسية العربية و نضيرتها الغربية ، غبير أن هناك عوامل و ظروف متنوعة أدت الى تألق هذا المذهب في أدبنا العربي .

– عوامل ظهور التيار الرومانسي في الأدب العربي:

1 - **تأثيرات الغرب.**

قوي الاتصال بالثقافة الغربية في بداية القرن الماضي و أخذت البعثات تقصد أوربا للتزود بالعلوم الجديدة فتأثرت بها و عادت تحمل هذا التأثير و وصل الى المثقفين ماتوصل اليه الغرب من أسرار الصياغة الشعرية و وسائل التصوير و الإيماء و كثرت الترجمات و المطالعات في كتب الغربيين و تنبه الأدباء و النقاد العرب الى أن هناك أغوارا في النفس الانسانية و أسرار في الطبيعة لم يقعوا عليها ، بينما نفذ اليها الغربيون و بهذا أثرت هذه التيارات الفكرية و الشعورية في تطور الشعر العربي الحديث .

1 – التجمعات الأدبية المجددة :

كمدرسة الديوان و الكنز الذهبي التي تزعمها العقاد و المازني اللذان سقط في أيديهما مجموعة لمختارات الشهيرة مما كتبه الشعراء الانجليز من شعر غنائي وجداني التي سميت(الكنز الذهبي) ، فنهل منها العقاد و المازني و ظهرت فيما بعد آثار هذا الكنز في المعاني الشعرية التي تخللت شعر هذه المدرسة ، كما كان للرابطة القلمية بالمهجر

بزعامة جبران خليل و رفاقه الفضل الجليل في تحرير الشعر من القيود التي فرضت عليه و قد ساهمت جماعة أبولو في التطلع نحو الغرب و موازنة آدابه بآداب الشرق حيث انتظم فيها معظم الشعراء الرومانسيين الذين تبلور على أيديهم هذا المذهب.

2 - المجلات و الصحف الداعية للتجديد.

أسهمت المجلات الأدبية في هذه الحركة التجديدية الحديثة و حملت صفحاتها الأعمال الأدبية التطبيقية لهذا التجديد

*** الانتقادات التي وجهت الى الاتباعيين :**

شن أنصار التيار الرومانسي حملات قوية على الأدب الكلاسيكي الذي تزعم مدرسته البارودي و شوقي ، و قد تركز الهجوم على الأغراض الشعرية و قالب التعبير و الصنعة و تفكك القصيدة ثم امتد فيما بعدالى النثر و قد تجلى هذا النقد فيما يلى :

ا – الهجوم على الأغراض التقليدية .

تركزت الحملات على الأغراض التقليدية و تفكك القصيدة و التصنع البلاغي فيها و كان الشعر الاتباعي منذ نشأته و كذا الأغراض التقليدية التي أدار المتمسكون بالديباجة العربية حولها تجاربهم أشدها عرضة للهجوم ، فقد تركز النقد عليها و هي نقطة ضعف لم يستطع الاتباعيون الدفاع عنها بشكل جاد.

ب – الهجوم على قوالب التعبير.

سخر المجددون من قوالب التعبير الضيقة التي التزم بها التقليديون و لم يبرحوها ، فكانت قصائدهم صورا منسوخة من نماذج الشعر القديم ، فقد هاجم خليل ثابت شعر الفخر و الغزل و المدح و الرثاء و الوصف الذي ورثناه عن الجاهليين و يتعجب من الشعر الذي لايزال يصور حدوالإبل و ما فعلته رياح الشمال و الجنوب بآثار بيت الحبيبة.

ج – الهجوم على الصنعة:

بين سليمان البستاني في مقدمته عن الإلياذة (1904) زيف الصنعة و نقص فهم المقلدين لحقيقة الشعر و كذلك فعل أمين الريحاني حين هاجم الصنعة و الكذب في الأدب .

د – الهجوم على تفكك القصيدة.

نادى المجددون بضرورة الوحدة العضوية في القصيدة و ذموا تقطع أوصالها و اشتمالها على أغراض متنوعة على نحو ما فعل العقاد في الديوان و الدكتور مُحَمَّد غنيمي هلال في كتابه (النقد الأدبي الحديث) و كانت نظرية الوحدة العضوية المستوحاة من كولريدج أو أرسطو تلقى لدى العقاد و هلال اهتمام خاصا ، وهما يقصدان بها إدخال الفكر و المنهجية في القصيدة و عدم إحلال عضو محل آخر حتى تكون القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها ، يؤدي بعضها الى بعض عن طريق التسلسل في التفكيرو الاحساس.

هـ – امتداد الصراع الى ميادين النثر .

امتدت عدوى الصراع بين القديم و الجديد الى ميادين النثر و تجلت في النقاش الذي دار بين الرافعي و طه حسين ، حيث تمسك الرافعي بالقيم الموروثة ، و ربط هذا الصراع الفكري بالدين الاسلامي ، و راى أن أية دعوة من جديد قد تمس اللغة و تمس المثل ، و لذلك فهي تمس الدين ، في حين يرى طه حسين أن التجديد ضرورة ملحة في الأدب العربي ليساير روح العصر.